مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - *51* - (197) 2025
https://doi.org/10.34120/jgaps.v51i197.3377

عصر الإمارات النجدية (850-1139 هـ/ 1446-1727): دراسة نقدية تحليلية من منظور التطور التاريخي

أحمد بن عبدالله الرسي[1]

ملخص

الأهداف: تهدف الدراسة إلى تقديم قراءة نقدية وتحليلية للسردية المؤسسة واتجاهات الباحثين السعوديين في تقييم المرحلة التاريخية للإمارات النجدية من منظور تطورها التاريخي (التقدم أو التراجع)، كما تهدف إلى دراسة دور الإمارات النجدية في تأسيس الدولة السعودية، وذلك من خلال تحليل مسار تطورها التاريخي. **المنهج:** اعتمد الباحث على منهج التحليل التاريخي، الذي يركز على فهم الظواهر من خلال سياقها التاريخي من منظور تأثير الزمان والمكان، إلى جانب التقييم النقدي للمصادر والاتجاهات الحديثة. **النتائج:** توصلت الدراسة إلى أن مرحلة الإمارات النجدية كانت تمثل مرحلة انتقالية مهمة، شهدت تطوراً ملحوظاً في مختلف المجالات. وقد أسهم هذا التطور في تهيئة الظروف المناسبة لتأسيس الدولة السعودية الأولى. **الخاتمة:** بناءً على النتائج، يوصي البحث بضرورة إعادة النظر في التصور التقليدي عن هذه المرحلة، وإجراء المزيد من الدراسات لتسليط الضوء على أهميتها التاريخية.

الكلمات المفتاحية: تاريخ نجد، التطور التاريخي، الدرعية، الدولة السعودية الأولى

(1) أستاذ مساعد، قسم التاريخ والحضارة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية.
AAALRASI@imamu.edu.sa

- تُسلّم البحث في: 2024/12/29، أجيز للنشر في: 2025/3/23.

تصدر عن مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت. جميع الحقوق محفوظة للمجلة.

للاستشهاد بهذه المقالة انظر ص. 288

The era of Najd Principalities (850-1139 AH / 1446-1727): A critical and analytical study from the perspective of historical development

Ahmed A. Alrasi[1]

Abstract

Objectives: This study aims to provide a critical and analytical reading of the foundational narrative and the perspectives of Saudi researchers in evaluating the historical phase of the Najd Principalities from the viewpoint of their historical development (progress or decline). It also seeks to examine the role of these principalities in the establishment of the First Saudi State by analyzing their historical trajectory. **Method:** The researcher adopted the historical analysis methodology, which focuses on understanding the phenomena through their historical context, considering the influence of time and place, alongside a critical assessment of sources and contemporary scholarly approaches. **Results:** The study concludes that the Najd Principalities represented a crucial transitional period, marked by significant developments in various fields. This progress contributed to creating favorable conditions for the establishment of the First Saudi State. **Conclusion:** Based on the findings, the research recommends reconsidering the traditional perception of this period and conducting further studies to highlight its historical significance.

Keywords: Najd history, historical development, Diriyah, First Saudi State

(1) Assistant Professor, Department of History and Civilization, College of Social Sciences, Imam Muhammad bin Saud Islamic University, KSA. AAALRASI@imamu.edu.sa

- Submitted: 29/12/2024, Accepted: 23/3/2025.

Published by the Academic Publication Council of Kuwait University. All rights reserved.

To cite p. 288

المقدمة

يعد عصر الإمارات النجدية إحدى المراحل المهمة في تاريخ الجزيرة العربية، وقد ارتبطت بتحولات سياسية واجتماعية شكلت جزءاً من تطور المنطقة. ومع ذلك تبقى الرواية التاريخية لهذه المرحلة محل جدل واسع بين الباحثين؛ إذ انقسمت الآراء بين متمسّكين بالسردية التقليدية التي تصفها بالتراجع، واتجاهات حديثة تُعيد قراءتها بوصفها مرحلة تطور مشروط بظروف معينة. انطلاقاً من هذا الجدل، تسعى هذه الدراسة إلى تحليل نقدي للسرديات القائمة وتقديم قراءة متوازنة تُسهم في فهم أعمق لهذه الحقبة التاريخية.

أهمية موضوع الدراسة

- إعادة تقييم الرواية التاريخية: تسهم الدراسة في مراجعة السرديات التقليدية حول عصر الإمارات النجدية؛ مما يساعد في تصحيح المفاهيم التاريخية وإثراء النقاش الأكاديمي.
- سد الفجوات البحثية: تتناول الدراسة مرحلة تاريخية قلّما حظيت بتحليل متوازن؛ مما يجعلها إضافة نوعية في هذا المجال.
- تحليل التحولات التاريخية: تقدم الدراسة فهماً أعمق للتغيرات السياسية والاجتماعية في نجد خلال تلك الحقبة؛ بما يسهم في وضعها ضمن سياق أوسع في تاريخ الجزيرة العربية.
- تحقيق الموضوعية في الدراسات التاريخية: تهدف الدراسة إلى تقديم نقد موضوعي مستقل عن التوجهات الأيديولوجية، مع تأكيد أهمية النقد البنّاء وسيلة لتطوير الرواية التاريخية وليس مجرد نقضها.
- تعزيز البحث الأكاديمي: توفر الدراسة أساساً بحثياً يمكن أن يُحفز الباحثين وطلاب الدراسات العليا لإجراء مزيد من الدراسات حول هذه المرحلة.

أهداف الدراسة

- نقد وتحليل الأطروحات التاريخية المتعلقة بمرحلة ما قبل التأسيس، مع التركيز على مسألة التطور التاريخي بدلاً من جمع البيانات التفصيلية.

- استعراض أبرز رؤى المؤرخين والباحثين السعوديين حول تلك المرحلة، وتصنيفها ضمن اتجاهات تصفها بالتطور أو التراجع.
- إبراز دور الباحثين السعوديين في تعزيز السردية التأسيسية، وتحليل تأثير رؤاهم على تشكيل التصور التاريخي.
- مقارنة أعمال الباحثين السعوديين لتوضيح أثر السياقات المختلفة على تفسير السردية التأسيسية؛ مما يسهم في بناء صورة أكثر شمولية.
- التمهيد لدراسات مستقبلية تشمل رؤية الباحثين العرب والغربيين؛ بهدف المقارنة بين السياقات المختلفة في تناول مرحلة ما قبل التأسيس وإبراز تعددية وجهات النظر حولها.

منهجية الدراسة

تعتمد الدراسة على المنهج التحليلي النقدي؛ إذ يتم تحليل ونقد المصادر الأولية التي تناولت عصر الإمارات النجدية، مع إجراء مراجعة نقدية للدراسات السابقة التي أصدرت أحكاماً حول هذه الحقبة من منظور التطور التاريخي، وتصنيفها وفق اتجاهاتها الفكرية. ويهدف هذا النهج إلى تقديم رؤية متوازنة من خلال مقارنة وجهات النظر المختلفة؛ مما يتيح فهماً أعمق لطبيعة هذه المرحلة التاريخية. كما تتناول الدراسة تساؤلاً رئيسياً حول الإمارات النجدية إذا ما كانت تمثل مرحلة تطور أو تراجع، مع فتح المجال لدراسات مستقبلية تُعيد تقييم هذه الفترة في ضوء نتائج الدراسة.

تساؤلات الدراسة

لقد شهدت هذه المرحلة تبايناً في الرؤى التاريخية؛ فقد اعتبرها الأغلب مرحلة تراجع، ورأى آخرون أنها كانت مرحلة انتقالية شهدت تطورات مهمة.

وتهدف الدراسة إلى طرح أسئلة جوهرية حول طبيعة هذه المرحلة؛ وذلك بهدف فتح آفاق جديدة للبحث والدراسة وذلك من خلال الأسئلة الآتية:

أولاً: تساؤلات حول السردية التاريخية والتفسيرات المختلفة

1 - لماذا هيمن تفسير التراجع على السردية المؤسسة لمعظم الدراسات الحديثة حول مرحلة الإمارات النجدية؟

2 - ما أبرز الاتجاهات الحديثة في الدراسات التاريخية التي تتناول هذه المرحلة؟ وكيف تختلف عن النظرة التقليدية التي تصفها بالتراجع؟

3 - ما المبررات التاريخية التي تستخدمها الدراسات الحديثة لتحديد الإمارات النجدية إذا ما كانت مرحلة تطور أم تراجع؟

4 - ما المقاربات البديلة التي طرحتها بعض الدراسات الحديثة لتفسير تطورات هذه المرحلة؟ وما الأسس النظرية والتاريخية التي تدعمها؟

ثانياً: تساؤلات حول المعايير والمقاييس التاريخية

5 - ما المعايير التي يمكن الاعتماد عليها لتقييم هذه المرحلة إذا ما كانت تمثل تقدماً أم تراجعاً؟

6 - أتكون مقارنة المستوى الحضاري لهذه الحقبة بالمراحل السابقة أم اللاحقة؟ وكيف يؤثر ذلك على الحكم التاريخي؟

7 - أكانت الحياة العامة في مرحلة الإمارات النجدية محصورة في الحوادث الأمنية؟ أم أن المجتمع استمر في مزاولة أنشطته الاقتصادية والتعليمية وغيرها من جوانب الحياة؟

ثالثاً: تساؤلات حول نشوء الدولة المركزية وعلاقتها بالإمارات النجدية

8 - هل هناك محاولات سابقة في نجد لتأسيس دولة مركزية قبل الإمام محمد بن سعود؟

9 - لماذا لم تؤسَّس الدولة المركزية الموحدة في نجد قبل القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، على الرغم من وجود كيانات سياسية سابقة؟

10 - أتمثل الدولة السعودية قطيعة تامة مع مرحلة ما قبل التأسيس؟ أم أن هناك استمرارية تاريخية بين المرحلتين؟

11 - كيف أثرت التطورات السياسيـــة والاجتماعيـــة في هذه المرحلة على مسار التاريخ السعودي؟

رابعاً: الآثار المترتبة على تقييم هذه المرحلة

12- ما التداعيات التاريخية والفكرية لتصنيف عصر ما قبل التأسيس على أنه عصر متقدم أو متراجع؟ وكيف يؤثر ذلك على فهمنا للتاريخ السعودي بشكل عام؟

جديد الدراسة

عالجت العديد من الدراسات السابقة تاريخ نجد بقدر وافر من الاهتمام إلا أنها لم تتناول السردية التأسيسية إلى جانب دراسات الباحثين السعوديين من منظور التطور التاريخي لعصر الإمارات النجدية ضمن نسق موحد ومتكامل، وستُقدّم هذه الدراسة إضافة نوعية من خلال نقد موضوعي للسردية التقليدية وتحليل معمق للاتجاهات الفكرية الحديثة. وتتميز الدراسة بدمجها بين التحليل النقدي والسرد التاريخي؛ مما يُسهم في تقديم رؤية متوازنة تسد فجوات بحثية قائمة، وتفتح أفقاً جديداً لفهم هذه المرحلة التاريخية بعيداً عن التحيزات الفكرية أو الأيديولوجية.

حدود الدراسة

تنحصر الدراسة مكانياً في إقليم نجد، وتاريخياً منذ تأسيس الدرعية نواة الدولة السعودية الأولى، التي تعد مرحلة تحول في تاريخ الإقليم، وتنقل الدراسة بنسبة محدودة بين المراحل التاريخية السابقة أو اللاحقة لعصر الإمارات؛ لدراسة السياق التطوري لها؛ مما يمكن الباحث من تقييم المرحلة، وأما موضوعياً فإنها تنحصر في مسألة التطور أو التراجع لعصر الإمارات النجدية التي شكلت المشهدين السياسي والحضاري في تلك الحقبة.

محاور الدراسة

تنقسم الدراسة إلى مقدمة وأربعة محاور:

- المحور الأول: نشأة السردية التاريخية وتطورها.
- المحور الثاني: نقد الاتجاهات الحديثة وتحليلها.
- المحور الثالث: تحليل التطور التاريخي لعصر الإمارات النجدية.
- المحور الرابع: الترجيح.

ثم تعرض الخلاصة وتشمل النتائج والتوصيات.

المحور الأول: نشأة السردية التاريخية وتطورها

تُعد المصادر التاريخية لعصر الإمارات النجدية متأخرة؛ إذ لم يظهر مؤرخ محلي من نجد يوثق تلك الحقبة بشكل معاصر لها، بل اعتمدت دراسة تاريخ هذه الإمارات على الذاكرة التاريخية، التي بطبيعتها عرضة للضعف والنسيان والالتباس. ونتيجة لذلك كُتب تاريخ الإمارات النجدية في زمن لاحق لحقبتها؛ مما أدى إلى تشكيل تصورات معينة حول تلك الفترة. وستصنف المصادر وفقاً لدور مؤرخي الدول السعودية المتعاقبة؛ إذ يُعد ابن غنام مؤرخ الدولة السعودية الأولى، واستمر ابن بشر على النهج ذاته في توثيق أحداث الدولة السعودية الثانية، ثم جاء ابن عبيد ليتابع هذا المسار في الدولة السعودية الثالثة. وقد تميزت كتاباتهم باتباع النمط الإسلامي التقليدي في التأريخ، على غرار منهج الطبري، الذي رتب الأحداث وفق التسلسل الزمني بالسنوات.

حسين بن غنام (ت1225هـ/ 1811)

ترد في سرديات ابن غنام (2010، ج1، ص ص.171-176) أن منطقة نجد كانت تعيش حالة من التراجع والتدهور قبل ظهور الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبدالوهاب؛ إذ يشير إلى وجود تدهور على المستويات الدينية والأخلاقية والأمنية خلال تلك الفترة.

ويلحظ الباحث أن تاريخ ابن غنام يتقمص أدبيات السيرة النبوية التي تقارن بين عصرين (الجاهلية والإسلام)؛ مما يؤدي إلى فرض نموذج ثنائي (جاهلية، إسلام) على سياق تاريخي مختلف (عصر ما قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، عصر ما بعد الدعوة)؛ مما يؤدي إلى تحيز في تحليله لعصر الإمارات؛ إذ يقدم صورة غير دقيقة ومبالغ فيها عن أوضاع عصر الإمارات، وتهميش التطورات الاجتماعية والحضارية التي حدثت خلال تلك الفترة.

عثمان بن بشر (ت1290هـ/1873)

يصف ابن بشر (1982، ج2، ص.377) أوضاع نجد قبل تأسيس الدولة السعودية بأنها فترة سادها الجهل، والنزاعات الأهلية، والعصبية، وانتشار ظاهرة

قطع الطريق. غير أن هذا الطرح النظري يتناقض مع الشواهد التاريخية التي يوردها في مواضع أخرى من كتابه، حيث توثق هذه الشواهد جوانب حضارية تعكس ملامح التطور والازدهار في تلك الحقبة، كما سيأتي لاحقاً.

إبراهيم بن عبيد العبدالمحسن (ت1425هـ/2004)

يصف ابن عبيد (2007، ج1، ص. 12) تلك المرحلة بأنها مظلمة، ويجب أن تسقط من الذاكرة التاريخية، وأن نجداً كانت تعاني أزمة طويلة لم تُحلَّ إلا بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتأسيس الدولة السعودية.

وهذه السرديات متواصلة لم تنقطع في الكتابة المحلية عن أوضاع نجد قبل التأسيس، والمصادر الثلاثة السابقة تشترك في تقديم حقبة ما قبل الدولة السعودية على أنها نموذج "تراجع"، مقابل التحول الإيجابي الذي بدأ مع نشأة المدن النجدية وتأسيس الإمارات -كما سيأتي- وتتمحور هذه السردية بشأن أوضاع نجد قبل تأسيس الدولة السعودية الأولى حول مسألتين:

- الأولى: الشرك.
- الثانية: انعدام الأمن.

المحور الثاني: نقد الاتجاهات الحديثة وتحليلها

بعد مراجعة الباحث لأدبيات الدراسات السابقة، اتضح له أن هناك اتجاهين رئيسيين، تركزت حولهما هذه الدراسات.

الاتجاه الأول: الاتجاه المحافظ

هو اتجاه يتبنى الرواية التقليدية ويسعى إلى تعزيزها، وغالبية الدراسات التي اطلعت عليها تصنف عصر الإمارات على أنها مرحلة تراجعية، والفكرة نفسها تعاد في أكثر من دراسة بصيغ مختلفة، ولهذا اكتفيت بنماذج من الدراسات المحكمة التي تتبنى هذه الفكرة؛ مثل: (التركي، 1998؛ الدامغ، 1999؛ العريني، 1999).

أما دراسة العريني (1999، ص. 12)؛ فقد وصفت مرحلة ما قبل التأسيس بأنها تعاني همّاً أمنيّاً، وفراغاً سياسيّاً، وضعفاً علميّاً، وتدهوراً اقتصاديّاً.

ويصف التركي (1998، ص. 26) حالة نجد قبل قيام الدولة السعودية بقوله: "يسودها الاضطراب والتناحر، والانقسام، وأشبه ما تكون بسياسة الغاب التي يقضي فيها القوي على الضعيف".

ويرى الدامغ (1999، ج2، ص. 291) أن مرحلة الإمارات النجدية هي مرحلة انحطاط، وأن إمارات الطوائف في الأندلس أفضل حالاً.

تتفق هذه الدراسات على مسألة تراجع عصر الإمارات في السياق التاريخي؛ إذ تعمم التدهور في مختلف المستويات السياسية والحضارية. وقد استندت هذه الدراسات إلى المصادر الأساسية؛ مثل ابن غنام وابن بشر، التي صورت هذه المرحلة باعتبارها فترة تراجع، وركزت على الجوانب العسكرية والصراعات السياسية والأبعاد الدينية، في حين أغفلت -إلى حد كبير- الجوانب الحضارية والاجتماعية. وعلى الرغم من وجود شواهد تاريخية تثبت ازدهار النشاط الاقتصادي، والتوسع العمراني، وظهور مراكز علمية وثقافية، فإن هذه الجوانب لم تحظَ بالاهتمام الكافي في الروايات التاريخية الأساسية. ونتيجة لذلك، تشكلت صورة غير متوازنة عن تلك الحقبة؛ مما يستدعي إعادة قراءتها من منظور أكثر شمولية.

ولم يقتصر التركيز على الجانبين العسكري والديني في عصر الإمارات فحسب، بل امتد أيضاً إلى الدولة السعودية، وهذا من الصعوبات التي واجهت المنيف (2010، ص. 124) في دراسته للحياة العلمية في الدرعية خلال الدولة السعودية

الأولى، حيث يقول: "لا تقدم المصادر المعاصرة -باستثناء ابن بشر- معلومات دقيقة عن الحياة العلمية في الدرعية.. والطريقة التي تدار بها الدروس، بل كان التركيز -في غالب تلك المصادر- على الجانبين: الدعوي والغزوات".

ويقول العثيمين (1999، ج1، ص. 14): "لم تمر سنة واحدة من 1159-1233هـ (1746-1818) إلا وقد حدثت فيها معركة أو عدة معارك".

ويستفاد مما سبق أن السردية التاريخية المحلية تركز بشكل كبير على التاريخ العسكري؛ مما يجعلها تفتقر-في الغالب- إلى الاهتمام بالتأريخ الاجتماعي والتحليل المركب عامة؛ وعليه اختزلت مرحلة الإمارات النجدية بتركيز مفرط على الجانبين: العسكري والديني؛ مما أدى إلى إغفال الجهود الحضارية من عمرانية واقتصادية ونمو سكاني وتطورات علمية قامت عليها الإمارات النجدية، بالإضافة إلى الدور الذي لعبته الإمارات في إعادة تشكيل بنية المجتمع، وهذا القصور يحرم الباحثين من استكشاف أبعاد أعمق للمرحلة التاريخية وفهم تطورها بشكل متكامل.

إن وجود بعض الاضطرابات لا يعني تعميمها على أجيال متعاقبة وعصر بأكمله؛ فقد تشهد الفترات التاريخية التي تمر بها المجتمعات بعض التحديات الأمنية أو السياسية، لكنها في الوقت ذاته قد تزدهر في مجالات أخرى؛ مثل التعليم والعمران والاقتصاد، وهذا يدل على وجود نوع من الاستقرار النسبي الذي يسمح بازدهار الحركة العلمية والعمرانية؛ مما يُبرز تعددية الأبعاد في قراءة التاريخ.

وأما عن التدهور العلمي الذي عممه العريني على مرحلة الإمارات؛ فإن الشواهد التاريخية تؤكد وجود 80 عالماً في العيينة (البسام، 1999، ج1، ص. 15)، ومن رواد الحركة العلمية في العيينة الشيخ أحمد بن يحيى بن عطوة (ت948هـ/ 1541) الذي تميّز بعلمه الغزير ومؤلفاته العديدة، وكان من أعلام الفقه في نجد ونهل من علمه كوكبة من علماء نجد، وفي مقدمتهم الشيخ أحمد بن محمد بن مشرف الأشيقري (ابن عيسى، 1999، ج2، ص. 39).

وأما إطلاق عبارة "الفراغ السياسي" لوصف الحالة في نجد خلال تلك الفترة؛ فإنه غير دقيق؛ لأن الواقع التاريخي يثبت وجود كيانات سياسية مستقلة؛ مثل إمارة

الدرعية والعيينة، استمرت لفترات طويلة. وهذا يدل على أن الوضع السياسي في المنطقة لم يكن فراغاً مطلقاً، بل كان نظاماً سياسياً موزعاً بين عدة إمارات مستقلة، وحكم الأمير عبدالله بن محمد بن معمر الثاني لإمارة العيينة لمدة اثنين وأربعين عاماً يُعد دليلاً على وجود أنظمة سياسية مستقرة في المنطقة، وإن كانت لا تخضع لنظام دولة مركزية كبرى (الفاخري، 1999، ص ص. 101-125).

وأما عن التدهور الاقتصادي؛ فإن نشأة المدن النجدية -كما سيأتي- يؤكد أن المنطقة تمتعت بدرجة من الاستقرار سمحت بازدهار عمراني واقتصادي ونمو بشري وحراك علمي. فلا يمكن أن ينشأ هذا العدد من العلماء أو تستمر الحركة العلمية في ظل انفلات أمني مستمر؛ إذ إن وجود بيئة علمية نشطة يتطلب حداً أدنى من الاستقرار الذي يضمن للعلماء التفرغ لأبحاثهم وتعليمهم.

ووجود مشكلات أمنية لا يعني بالضرورة غياب التطور؛ فالتحديات الأمنية قد تكون جزءاً من مسار تطور المجتمعات؛ فالإمارات التي واجهت صراعات داخلية أو تهديدات خارجية، تمكنت من بناء مدن محصنة؛ مثل: الدرعية والعيينة والرياض والدلم، وبرزت شخصيات قوية استثمرت فيها الدولة السعودية في تأسيسها، فكانت بعض قيادات الدولة السعودية الأولى من أمراء البلدات النجدية؛ مثل: أمير العيينة: عثمان بن حمد بن معمر (ت1163هـ/1750م) (ابن بشر، 1982، ج1، ص. 54).

أما أطروحة التركي التي تصف عصر الإمارات بقانون الغاب؛ فهي تحمل شيئاً من المبالغة؛ إذ إن شيوخ الإمارات النجدية وأمراءها تمتعوا بقيم عربية ودينية بارزة؛ فقد اشتهر الشيخ أبو علي حسين الوائلي من شيوخ أشيقر بالسخاء والمروءة وإكرام الضيف (ابن لعبون، 1999، ج1، ص. 16).

وقد حظي بعضهم بتقدير الدولة العثمانية؛ مثل أمير الدرعية إبراهيم بن موسى المريدي، الذي شُكر على جهوده في تأمين قوافل الحج عام (980هـ/1572)؛ مما انعكس إيجاباً على راحة الحجاج (ابن عساكر، 2005، ص. 53، نقلاً عن وثيقة عثمانية).

وأما أطروحة الدامغ في أن إمارات الأندلس أفضل حالاً؛ فهي مقارنة غير دقيقة؛ إذ وقع في مفارقتين: إحداهما زمانية والأخرى مكانية؛ لأن السياق التاريخي النجدي

يختلف عن السياق الأندلسي؛ ولتوضيح الفروق الأساسية بين نموذجي الإمارات النجدية والإمارات الأندلسية، سأقوم بمقارنة جوانب مختلفة من التجربتين، بدءاً من ظروف نشأتهما وانتهاءً بمسارات تطورهما:

- نشأت إمارات الأندلس بعد سقوط دولة مركزية (الأموية)؛ في حين نشأت الإمارات النجدية -كما سيأتي- في فراغ سياسي؛ إذ لم تكن هناك دولة مركزية سابقة. هذا الاختلاف في النشأة يجعل المقارنة بين الحالتين غير مبررة.
- تختلف تجربة الإمارات النجدية عن تجربة إمارات الأندلس جوهرياً. فالأندلس شهدت تراجعاً من مرحلة الوحدة (الدولة الأموية) إلى مرحلة التشظي (إمارات الطوائف)، في حين شهدت نجد انتقالاً من مرحلة الركود (أرض بيضاء أو خراب) إلى مرحلة النهضة والبناء، كما سيأتي. هذا الاختلاف في المسار التاريخي يجعل من الصعب مقارنة الحالتين.
- تُعتبر الدرعية خير مثال على طبيعة تطور الإمارات النجدية التي بدأت أرضاً بيضاء حتى قام مانع بن ربيعة المريدي بتأسيسها إمارة متطورة على الصعيدين العمراني والاقتصادي. ولاحقاً طورها الإمام محمد بن سعود، ليجعل منها قاعدة للدولة السعودية الأولى؛ مما يعكس تطوراً استجابياً في السياق التاريخي النجدي.

الاتجاه الثاني: الاتجاه التجديدي

يقدم سردية بديلة عن السردية التقليدية، معتبراً عصر الإمارات مرحلةً من مراحل التطور التاريخي. ويُمثل هذا الطرح كلٌّ من: (الجهني، 2016؛ الدخيل، 2012).

تميّز عويضة الجهني (2016، ص. 11) بكونه أول من قدم رؤية مغايرة لما قدمه المؤرخون المحليون حول التطورات الاجتماعية والاقتصادية في نجد؛ إذ توصل إلى نتائج مختلفة:

> إن نشأة الحركة الوهابية في نجد لم تحدث بمحض الصدفة .. (فثمة) تطورات مدهشة في مناطق تحركات الهجرة البدوية، والاستيطان، ونمو عدد السكان المستقرين، والهجرة وإعادة الاستيطان، ونمو التعليم الديني، وقد تضافرت هذه التطورات كلها من أجل خلق مجتمع نجدي جديد بحلول منتصف القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي.

وملخص أطروحة الجهني هو محاولة تقديم نظرية في التطور التاريخيّ النجديّ، وأن أزمة الإمارات النجدية كانت في الحروب الأهلية؛ وللخروج من هذا المأزق ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ودولة الإمام محمد بن سعود، استجابة لهذا الظرف الأمني بتأسيس دولة موحدة مركزية تحكم بالشريعة الإسلامية؛ وتتجاوز الحرب الأهلية.

وعليه؛ تمكن الجهني من الكشف عن أبعاد جديدة في التاريخ النجدي من خلال تحليل عميق للسردية التاريخية المحلية. فقد استطاع رصد تطورات مهمة في النمو السكاني والتطور العمراني، وذلك من خلال فك شفرة الدلالات الخفية الكامنة في نصوص التاريخ المحلي؛ مثل رمزية الغرس والعمارة. فالغرس وعمارة المنزل عند النجديين يعنيان امتلاك الأرض، ومما يعزز أطروحة الجهني ما قاله الذكير (1999، ج.7) عن تلك المرحلة:

> نشأت الدرعية والعيينة بوقت واحد، ولكن العيينة سبقت الدرعية بالقوة والعمران، حتى كانت المدينة الأولى في نجد، وتبوأت المركز الأول في نجد، ولم تزل كذلك إلى أواسط القرن الثاني عشر، فإنها فقدت منزلتها بعد وفاة أميرها عبدالله بن محمد بن معمر المشهور، فاحتلت الدرعية مركزها، واستلمت قيادة زمام النهضة التي وحدت فيها كلمة نجد، وكادت توحّد كلمة الجزيرة بأسرها، تحت راية واحدة (ص. 22).

من النص السابق يتبين وجود حركة تنموية وتطور حضاري ملحوظ في الإمارات النجدية. ووظّف الدخيل (2012) هذه الرؤية التاريخية من منظور علم الاجتماع، وبوصفه متخصصاً في هذا المجال، استخدم أدوات علم الاجتماع لتحليل تلك الفترة، وأطلق عليها تسمية "عصر التطور". وقدم تحليلاً اجتماعياً لأسباب قيام الدولة السعودية، مسلطاً الضوء على تراجع دور القبيلة في المدينة خلال عصر الإمارات وظهور الأسر الحضرية مثل؛ آل مقرن، وآل وطبان، وآل معمر. واعتبر الأسرة ظاهرة جديدة في نجد؛ إذ أصبحت الأسر الحضرية قوة مؤثرة تميل بطبيعتها أكثر من القبائل إلى تأسيس نظام سياسي مستقر.

وجاء ذلك نتيجة دراستهما العليا في الولايات المتحدة، حيث اطّلعا على مدارس تاريخية متنوعة؛ مما أسهم في تشكيل رؤى بديلة ومغايرة للسردية التقليدية المحلية.

ووفقاً للنظرية البديلة، فإن قيام الدولة السعودية الأولى كان نتيجة طبيعية للتطور التاريخي للمنطقة، وبعد بناء المدن والتوسع العمراني والنمو السكاني والاستقرار الحضري وبروز شخصيات قيادية في عصر الإمارات فإنها من الضروري أن تنتقل إلى مرحلة أعلى وهي الدولة الموحدة إلا أن النظرية البديلة أهملت دور الرجل العظيم في التأسيس؛ فالإشكالية في الدراسات المتأثرة بالنظريات الاجتماعية تكمن في إغفالها لدور العظماء في تشكيل مسار التاريخ. فبينما تركز هذه الدراسات على البُنى الاجتماعية والاقتصادية كعوامل محورية، تقلل من أهمية الأفراد الذين أحدثوا تحولات فارقة[1].

ومهما كانت للإمارات إمكانياتها فإنها في حاجة إلى قائد طموح لديه رؤية وتطبيق عملي يمكّنانه من استثمار الأوضاع القائمة، ويقود المجتمع وينقله من مرحلة إلى أخرى؛

(1) لو افترضنا غياب شخصيات في القرن العشرين، مثل غاندي، وتشرشل، وآينشتاين، فكيف كان يمكن أن يتغير مسار التاريخ؟ غاندي قاد حركة الاستقلال الهندي برؤية سلمية فريدة، وتشرشل لعب دوراً حاسماً في صمود بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية، بينما آينشتاين أحدث ثورة علمية غيرت فهم البشرية للكون. كل واحدة من هذه الشخصيات لعبت دوراً فريداً في تغيير مسار التاريخ في مجالاتها؛ مما يؤكد أهمية دراسة تأثير الأفراد في صياغة التاريخ، جنباً إلى جنب مع العوامل الاجتماعية والاقتصادية.

فكان الإمام محمد بن سعود هو تلك الشخصية التي سرّعت حركة التاريخ؛ فقد كان الإمام من وضع اللبنات الأولى لتوحيد نجد وإرساء دعائم الاستقرار السياسي والاجتماعي.

وأحدث الإمام تحوّلاً كبيراً في المجتمع النجدي، دون أن يُحْدِثَ قطيعة تامة مع المرحلة السابقة؛ لأن أي نظام جديد، لكي ينجح ويُحقق أهدافه، يحتاج إلى الاستفادة من الخبرات السابقة، فالقطيعة التامة مع المرحلة السابقة قد تُهدر الموارد، وتُفقد النظام الجديد فرصة البناء على النجاحات السابقة، كما أن التطور عادة ما يكون تراكمياً، وليس بالضرورة إلغاء ما سبق بالكامل؛ والشاهد على ذلك المحافظة على المنشآت العمرانية التي بنيت قبل ضمها إلى الدولة السعودية، مثل قصر دهام بن دواس في الرياض، الذي شيد قصراً متيناً، أحاطه بسور عظيم منيع (ابن خميس، 1978، ج1، ص ص. 490-493)، في موقع إستراتيجي، وكذلك اعتماد القيادة السعودية على أمراء الإمارات النجدية -كما مر بنا- مستفيدةً من خبراتهم السياسية ومكانتهم البارزة في مجتمعاتهم المحلية.

وبذلك تكون مرحلة التأسيس قد أوجدت كلّاً من الاثنين: القيادة والمجتمع لتأسيس دولة نشطة. وبهذا استطاع الإمام محمد بن سعود تأسيس دولة كبرى ذات كيان موحد؛ لتنتقل نجد إلى مرحلة جديدة مع نشوء الدولة السعودية.

المحور الثالث: التطور التاريخي لعصر الإمارات النجدية

بعد استعراض هذه الآراء، من الضروري أن يستند الحكم على تلك الحقبة سواء باعتبارها مرحلة تطور أو تراجع إلى مقارنتها بالحقبة التي سبقتها، وليس بناءً على ما جاء بعدها. فالتقييم الموضوعي لأي مرحلة تاريخية ينبغي أن يعتمد على سياقها الزمني، دون إسقاط معايير أو تحولات مستقبلية عليها[2].

فإذا كانت الحقبة السابقة أفضل حالاً من حقبة الإمارات النجدية فإن النتيجة هي أن نجداً في عصر الإمارات تراجعت بعد عصور من التطور والازدهار، وإن كان العكس فإن نجداً انتقلت من مرحلة بسيطة إلى مرحلة متطورة، ولكي نفهم تطور عصر الإمارات

(2) على سبيل الافتراض أن باحثاً أراد دراسة تطور الوسائل التقنية في القرن العشرين فإنه يجب أن يقارنها بالقرن السابق وليس في القرن الحالي.

النجدية بشكل أفضل، يجب علينا استكشاف الظروف التي سبقتها، وتعرّف العوامل التي شكلت المشهدين السياسي والحضاري في نجد قبل ظهور هذه الإمارات.

إن البحث في جذور عصر الإمارات النجدية يتطلب منا أن نتجاوز حدود هذا العصر، وأن نستكشف الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في نجد قبل نشوء هذه الإمارات. هذا التعمق في التاريخ سيمكننا من فهم التحديات والفرص التي واجهتها هذه الإمارات، وكيف استطاعت أن تشكل هوية خاصة بها.

مرحلة الانهيار خلال (500-650هـ/ 1107-1250)

واجهت نجد أزمات محلية في البنيتين: الفوقية والتحتية، خلال القرن السادس الهجري (الرسي، 2024، ص. 109)، وتنقسم هذه الأزمات إلى قسمين:

القسم الأول: هشاشة البنى الفوقية

بعد زوال قوة الأخيضريين السياسية حلّ محلها بنو كلاب في نجد؛ يروي ابن خلدون (1988، ج6، ص. 16) أن دول بني كلاب وبني كعب لما انقرض ملكهم في جهات العراق والشام عادوا إلى البادية (الطور الأول)، وورثوا مواطن العرب في كل جهة؛ ويحتمل أن إحدى هذه الجهات هي نجد؛ ويعقّب ابن خلدون بأن مواضع قبائل بني كلاب في البادية، ومنها نصّ ابن سعيد: "ملكوا أيضاً أرض اليمامة من بني كلاب، وكان ملكهم فيها لعهد الخمسين والستمئة (650هـ/1250)- بني عصفور" فقد ربط سقوط دولتهم في الشام بعودتهم إلى نجد، وأصبحت لهم السيادة، حتى انتهت على يد بني عصفور.

وأما عن كيانهم في نجد، فيظهر أنه كيان ذو مشيخة قبلية، ولم يرتقِ إلى مقام الدولة؛ فلم تتوافر فيه مقوّمات الدولة من إطار مدنيّ وحاضرة مستقرة وقائمة أمراء؛ وهو ما ولّد فراغاً سياسيّاً في نجد أثّر في البنى التحتية؛ بمعنى أنها كانت في طور البداوة (الرسي، 2024، ص. 110).

القسم الثاني: انهيار البنى التحتية

واجهت نجد أزمات في البنى التحتية؛ وهو ما أثّر في البنى الفوقية التي لم تستطع بناء دولة في قاعدة غير صلبة تعاني اهتزازات (الرسي، 2024، ص. 110)، وتقسَم إلى أربعة مظاهر:

المظهر الأول: خراب بعض الحواضر النجدية. تعرّضت بعض حواضر النجدية للخراب في أثناء غياب الدولة الأخيضرية؛ مثل: خراب حجر، التي تعتبر أمّ قرى نجد خلال القرن السادس الهجري (الإدريسي، 1989، ص. 160)، وخراب قرقري؛ يروي ابن المجاور (1996، ص. 79) أن قرقر في فلاة نجد، وكانت مدينة عامرة خربت لاختلاف الأمم.

جاء خراب الحواضر في نجد نتيجة فقدان الدولة (العنصر شبه المحايد)؛ وهو ما ولّد حروباً أهليةً أثّرت في ضعف القوى البشرية وتركها المكان. وكذلك أثّرت الحروب سلباً في المنشآت الزراعية والعمرانية؛ وهو ما كان يجعل المكان غير صالح للبقاء، ويحتاج إلى إعادة إعمار؛ فالدولة عنصر مهمّ في الحفاظ على المدن ومنع خرابها (الرسي، 2024، ص. 110).

وفي فترة سيادة بني كلاب على نجد، برزت كقوى محلية، لكنها فشلت في تأسيس دولة مركزية قادرة على الحفاظ على الحواضر النجدية مثل حجر وقرقري، وكتبت بذلك نهاية حقبة من الاستقرار النسبي في المنطقة واستمرت على ظرفها الاجتماعي مشيخةً قَبَليةً (الرسي، 2024، ص. 110).

المظهر الثاني: مشكلات الطرق. كانت نجد بمثابة محور رئيسي لشبكة طرق تجارية في الجزيرة العربية تربط أقاليم الطرف فيما بينها؛ مما جعلها تعتمد بشكل كبير على هذه التجارة كمصدر رئيسي لاقتصادها، ووسيلة لإحياء مدنها. ومع ذلك، تعرضت هذه الطرق لتهديدات أمنية متكررة، وتعرض طريق اليمن -على وجه الخصوص- إلى دمار كبير في أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع للهجرة - الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، وكان طريق صنعاء إلى البصرة يمرّ معظمه عبر نجد، يمر المسافرون على وادي العقيق (عقيق بني عقيل)، ثم بلاد الفلج، ثم الخضرمة، ثم حجر اليمامة، ثم الصمّان، حتى يصلوا إلى الكاظمة (خسرو، 1983، ص. 338)، ويروي ابن المجاور (1996، ص. 83):

حدثني هشام بن مسعود النجراني في دار الإمارة قال: إنّه كان هذا الطريق ينفذ إلى الكوفة، أو قال: إلى البصرة، وكان أهل اليمن يسافرون إليه بالحمير، وعليهم

الأديم إلى إحدى هاتين المدينتين في العام مرتين. قلت: وعلى أيّ الأمكنة كان مسلكهم؟ قال: على اليمامة، والحساء، والبصرة.

إن انهيار طريق تجاري يكون له آثار عميقة على استقرار المنطقة؛ إذ يؤدي إلى تدهور الاقتصاد، والتراجع الحضاري.

المظهر الثالث: تراجع التعداد السكاني. تشير الدلائل التاريخية إلى حدوث تحولات جوهرية في التركيبة السكانية لنجد خلال القرن السابع الهجري، وقد زار ابن المجاور نجداً، وروى أنها لا عمارة فيها ولا سكن (1996، ص. 83)، وهي من صيغ المبالغة التي توضّح الانخفاض العمرانيّ والسكانيّ في نجد.

وقد شهدت هذه الفترة تغيراً ملحوظاً في أعداد القبائل وأسمائها؛ مما يشير إلى مرحلة انتقالية مهمة في تاريخ نجد الاجتماعي؛ إذ شهدت المنطقة تغيرات واسعة النطاق، تمثلت في ظهور قوى قبلية جديدة وتراجع أخرى، مما أرسى الأساس للتركيبة السكانية التي سيطرت على نجد في العصور اللاحقة (الجهني، 2016، ص. 11؛ الدخيل، 2012؛ الرسي، 2024، ص. 113).

ويتّضح أن نجداً مرَّت بمرحلة ركود وتراجع خلال المدة الزمنية منذ سقوط الدولة الأخيضرية إلى القرن السابع الهجري، ولا يعني ذلك أن نجداً خلت من التنمية، ولم تكن موجودة، فقد كان هناك عدد من الحواضر النجدية مزدهرة؛ مثل: الخضرمة (الإدريسي، 1989، ج1، ص. 161)، إلا أن الطابع العام أن الركودَ يغلب عليها، كما أن بعض الحواضر المهمّة انهارت؛ مثل: حجر اليمامة، وقرقري، إلى جانب انخفاض مصادر القوى البشرية.

المظهر الرابع: التراجع العلمي. نظراً للظروف الصعبة التي مرت بها نجد من انهيار سياسي واقتصادي واجتماعي، توقف النشاط العلمي وتراجعت الحركة الثقافية؛ ذلك أن الاستقرار يعدّ شرطاً أساسيّاً لازدهار الحركة العلمية، ومع أن الشقير (2002، ص. 90)؛ قد أشار إلى وجود المذهب الحنبلي في نجد خلال العصر العباسي الأخير فإن دراسة متأنية تكشف عن خطأ في نسبته بعض العلماء البجديين الشاميين إلى نجد؛ إذ اعتقد بأن البجديين هم أنفسهم النجديون، وإطلاق مصطلح "النجديّ"

على الأفراد لم يظهر في العصر العباسي بكثرة، فإمّا أنهم يذكرون علماء نجد بقبائلهم، وإما بنسب "اليمامي" (الرسي، 2024، ص. 354).

مرحلة النهضة خلال (650-850هـ /1250-1446)

غالباً ما تكون التحوّلات في البنى الفوقية سريعةً ومفاجئةً ومدوّيةً وصادمةً؛ كانتقال الحكم من دولة إلى دولة بتاريخ دقيق محدّد، وفي منعطف زمنيّ حادّ؛ بينما يكون للتغيّر في البنى التحتية امتدادٌ من دولة إلى دولة، فيتغيّر النظام السياسي، ولكن النظامين الاجتماعي والاقتصادي يبقيان على ما هما عليه، وفي حال حدث التغيّر فإنه يكون بطيئاً متدرّجاً، فلا يسقط النظام الاجتماعي القديم برمته ليحلّ محلّه نظام جديد، وإنما يتدرّج ليحلّ الجديد محلّ القديم ببطء، ونادراً ما يكون سريعاً ومفاجئاً؛ ومن ثم، لا تنهار البنى التحتية، وإنما تتلاشى تدريجياً، ليحلّ محلّها بنى جديدة تستغرق زمناً طويلاً خفيّاً، وليس ظاهريّاً.

فخلال القرن السابع الهجري تحوّلت نجد إلى أرض خصبة (بكر) وسوق جديدة للإقطاع لم تستغلّ بعدُ؛ بسبب الركود الذي مرّت به في القرن السادس للهجرة؛ وهو ما حفّز النجديين على الانتقال إلى مرحلة جديدة، وهي طور النهضة، أو الوثبة في سبيل التقدم، وظهرت بوادر تنموية؛ كتأسيس القرى، وإعادة التشكيل الاجتماعي منذ القرن السابع الهجري، وإن كانت المصادر النجدية المحلية المتأخرة غير دقيقة في تحديد تواريخ بناء المدن (الدامغ، 2011) فإن السياق العام يكشف أن هناك نهضة عمرانية ظهرت بوادرها منذ القرن السابع للهجرة – الثالث عشر للميلاد؛ مثل: بناء بني عائذ الوشمَ (الحموي، 1995، ج5، ص. 378)، وكذلك سكناهم التويم قبل سنة (700هـ/ 1301) بادية وحاضرة، ثم جَلَوْا عنها ودُمّرت (ابن لعبون، 1999، ج1، ص. 18)، وأُسست عنيزة سنة 630هـ/1233 (البسام، 1999، ج5، ص. 69)، والمذنّب في القرن السادس أو السابع للهجرة (العبودي، 1979، ج6، ص. 2235)، وحجر اليمامة في القرن السابع الهجري (ابن بطوطة، د.ت.، ج1، ص. 298)، وحائل في منتصف القرن السابع للهجرة (الدخيل، 1966، ص. 26) وفي سنة 700هـ/1300 أُسست تويم، وفي سنة 770هـ/1368 أُسست حرمة، وفي سنة 820هـ/1417 أُسست المجمعة (ابن عيسى، 1999، ج2، ص ص. 26-24).

وثمة تزامن بين تركيبة سكانية جديدة ونشأة المدن في القرن السابع الهجري. يقول الدامغ (2006، ص. 27): "منذ مطلع القرن السابع للهجرة (الثالث عشر ميلادي) بدأت تتشكّل في المنطقة قوى محلية (متحالفة) ما لبثت أن أصبح لها مكانة وسيطرة على أجزاء واسعة من بلاد اليمامة".

لقد انتهت نجد من مرحلة طويلة في البنى التحتية من اجتماعية واقتصادية وعمرانية امتدّت منذ فجر الإسلام حتى القرن السادس الهجري، ثم حدثت تحوّلات منذ القرن السابع؛ إذ شهدت تحولات في الخريطة السكانية والمدنية، مع ظهور أسماء قبائل جديدة وتأسيس مدن جديدة، واستمرّت بعقد التحالفات القبلية وتأسيس المدن، بحركة مستمرة بطيئة لم تتوقف.

مرحلة الإمارات النجدية (850-1139هـ/1446-1727)

بعد مرحلة النهضة في نجد أُسست الدرعية في القرن التاسع الهجري، نواة الدولة السعودية الأولى، وأُسست العيينة التي تعدّ إلى جانب الدرعية من أقوى الإمارات النجدية.

لقد أسهمت الإمارات النجدية في التنمية الاقتصادية والاجتماعية للمنطقة؛ إذ قامت بتأسيس بلدات مزدهرة شهدت نمواً سكانياً ملحوظاً وتوسعاً عمرانياً؛ مما أدى إلى استقرار الأمراء وتشجيعهم على الاستثمار في تطوير أراضيهم. وقد انعكس هذا الازدهار الاقتصادي على البنية التحتية؛ فشهدت تلك البلدات بناء القصور والحصون والمنازل؛ مما يعكس مستوى الاستقرار الذي عاشه المجتمع النجدي (الجهني، 2016، ص. 172).

يقول الجهني (2016): "كان الرؤساء يحاولون دائماً أن يزيدوا من مستوى ازدهار مستوطناتهم وقوتها من خلال الترحيب أو دعوة مستوطنين آخرين؛ ليقيموا في الأراضي الصالحة للزراعة الموجودة في إقليمهم ولزراعتها" (ص. 172).

ونتيجة لذلك ازدادت إنتاجية الأرض الزراعية وتكونت الفوائض، وعمرت البلدان النجدية التي أصبحت متجاورة ومتواصلة، بعد أن كانت متباعدةً جغرافياً يصعب توحيدها. ومن الشواهد في 820هـ/1417:

عمرت بلد المجمعة المعروفة؛ عمرها عبدالله الشمري من آل ميبار من عبدة من شمر، وكان عبدالله المذكور فداوياً عند حسين بن مدلج بن حسين، رئيس بلدة

التويم، فلما مات حسين قدم عبدالله الشمري المذكور على ابنه إبراهيم بن حسين في بلد حرمة، فطلب منه قطعة من الأرض لينزلها ويغرسها هو وأولاده، فأشار أولاد إبراهيم على أبيهم أن يجعله أعلى الوادي؛ لئلا يحول بينهم وبين سعة الفلاة والمرعى، فأعطاه موضع بلد المجمعة (ابن عيسى، 1999، ج2، ص. 26).

وكذلك أُسّست الدرعية وتطورت بالطريقة نفسها؛ فيروي ابن عيسى (1999):

وفيها قدم مانع بن ربيعة المريدي من بلد الدروع، المعروفة بالدرعية، من نواحي القطيف، ومعه ولده ربيعة على ابن درع رئيس الدروع، أهل وادي حنيفة، وكان بينهم مواصلة؛ لأن كلّاً منهما ينتسب إلى حنيفة، فأعطاه ابن درع المليبيد وغصيبة، فعمر ذلك هو وذريته ...، ثم إنه لما مات مانع المريدي تولى بعده ابنه ربيعة، وصار له شهرة، وكثرت جيرانه من الموالفة وغيرهم، وحارب آل يزيد (ج2، ص. 28).

وبناءً على النص السابق؛ يقول الجهني (2016): "في رئاسة ربيعة شهدت المستوطنة الجديدة توسعاً، وزاد عدد سكانها" (ص. 183). ويقول أيضاً: "هذه القوة السياسية والعسكرية وكذلك ضم الأقاليم الجديدة قد جذب المزيد من المستوطنين (الجيران) إلى الدرعية، وفي القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي أصبحت الدرعية بلدة ضخمة ومكتظة بالسكان، ويتردد عليها زوار وتجار عديدون" (ص. 183).

وأما العيينة؛ فقد شهدت تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ملحوظة في عهد الأمير عبدالله بن محمد بن معمر الثاني (1096-1138هـ/ 1685-1726). يقول ابن بشر (1982، ج2، ص. 338): "وكبرت العيينة في عهده وتزخرفت وكثرت أهلها وازدادت عمارتها". وازدهرت العيينة علمياً؛ فيروي البسام عن والده (1999، ج1، ص. 15): "أن فيها أكثر من ثمانين عالماً يدرسون العلم في جوامعها متعاصرين في زمن واحد، وهذه الحركة العلمية في العيينة تطورت إلى أن ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب".

والتطورات التي شهدتها العيينة ولدت طموحات توسعية واضحة؛ إذ سعى عبدالله بن محمد المعمر إلى ضم البلدات؛ مثل: العمارية وحريملاء وثادق والبير

(الجهني، 2016، ص. 188؛ الفاخري، 1999، ص ص. 125-101)، ويحتمل وجود مشروع في العيينة لتوحيد المنطقة؛ لأنها وصلت إلى مرحلة بإمكانها تأسيس دولة مركزية إلا أن هذا المشروع لم يكتمل نتيجة تغليب الطموحات الفردية وغياب الفكرة المحورية التي توحد الناس وتجمعهم تحت راية مشتركة. ويبدو أن الشيخ محمد بن عبدالوهاب لاحظ هذه النقطة بوضوح، وأدرك أن هناك حاجة إلى فكرة محورية تستطيع أن توحد المجتمع.

من هذا المنطلق، جاء مشروعه الإصلاحي الذي ركز على التوحيد وتنقية العقيدة الإسلامية مما اعتبره شوائب؛ ليكون ذلك الأساس الذي يجمع الناس ويوحدهم، وقد عرض الشيخ دعوته على أمير العيينة عثمان بن حمد بن معمر متوقعاً أن يكون له شأن كبير في نجد (ابن بشر، 1982، ج1، ص. 38)؛ إذ كانت جميع مقومات الدولة متوافرة، ولم يكن ينقصها سوى فكرة ناظمة تُوحّد المجتمع.

ومع ذلك لم تدم الدعوة في العيينة طويلاً؛ مما دفعها للانتقال إلى الدرعية، حيث وجدت الفكرة الناظمة موطئ قدم لها؛ مما مهد الطريق لتأسيس الدولة السعودية في الدرعية، وقد أصبح الدين عاملاً مشتركاً يوحد القبائل المتفرقة ويكوّن نظاماً سياسياً مركزياً[3].

ومما يؤكد أن ثمة حركة عمرانية ونشاطاً بشرياً أسهم في التنمية والتطور ما شهدته الرس من إعادة إعمار واستيطان خلال القرن العاشر الهجري. ففي نحو عام (950هـ/1543)، انتقل آل صقية من أشيقر إلى القصيم، واستقروا في الرس التي كانت آنذاك مهجورة، فعمَّروها ومارسوا فيها الفلاحة. وبعد ذلك قام محمد أبا الحصين من آل محفوظ من العجمان بشرائها منهم، وانتقل مع أسرته من عنيزة إلى الرس، حيث استقروا وواصلوا عملية الإعمار (ابن عيسى، 1999، ج2، ص. 39).

ومن التطورات التي شهدتها الحواضر النجدية قبل التأسيس تطور حريملاء (1045-1139هـ/1635-1727)؛ فقد طوّرتها أسر من بني وائل من آل حمد وآل

(3) تبتعد هذه الدراسة عن الخوض في الجدل الميتافيزيقي حول دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وتركز بدلاً من ذلك على تحليل دورها العملي في عملية التأسيس.

مبارك والبكور، يقول الذكير (1999، ج7): "تقدمت في العمران في مدى المئة السنة التي تلت تأسيسها، حتى كانت في الدرجة الثانية من بلدان نجد" (ص. 124).

ويعكس هذا التتابع التاريخي ديناميكية الاستيطان والتوسع العمراني في نجد خلال تلك الفترة.

ومن خلال تطورات الإمارات النجدية أصبحت هناك حاجة إلى تشريعات (قوانين)؛ لتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع؛ فحدث حراك تعليمي منذ القرن العاشر الهجري -كما مرَّ بنا- في إمارة العيينة، وتطورت الحركة العلمية إلى أن ظهرت الفكرة الناظمة بوساطة دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، التي تعدّ عاملاً من عوامل تأسيس الدولة السعودية التي استثمرها الإمام محمد بن سعود؛ ولهذا السبب فإن الدولة المركزية الموحدة لم تقم في القرن السادس أو التاسع؛ بسبب ضعف البنية التحتية التي لم تنضج إلا في القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد؛ لأنه يجب أن تمر المنطقة بمرحلة تَكَوُّن وتَطوّر قبل تأسيس الدولة الكبرى، وهذا يدل على الرؤية الثاقبة للإمام محمد بن سعود، الذي استطاع أن يتنبأ بالظروف المناسبة لبناء دولته، وخطط لها بعناية حينما وجد الظروف المناسبة في تأسيس الدولة خلال القرن الثاني عشر الهجري -الثامن عشر ميلادي.

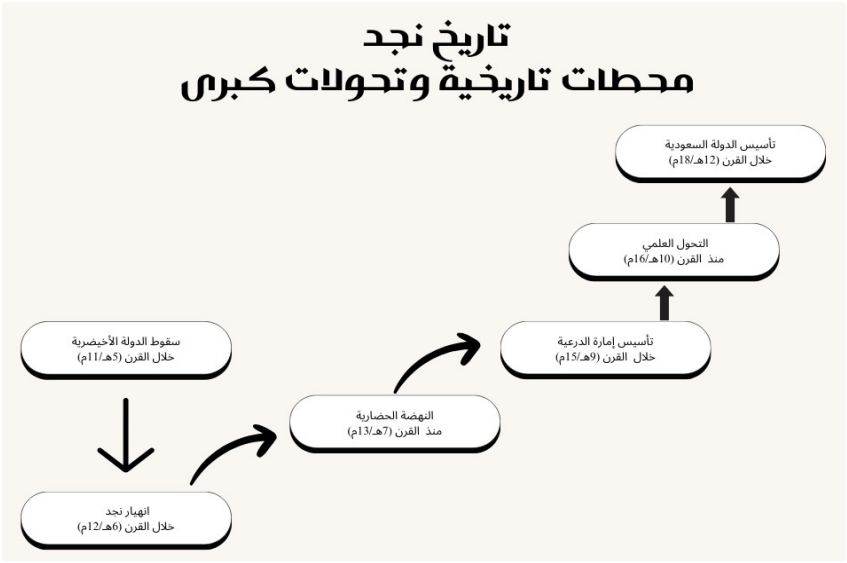

المحور الرابع: الترجيح

بعد دراسة الباحث التحليلية والنقدية من منظور التطور التاريخي، يتضح أن تاريخ نجد اتبع مساراً تطورياً متسلسلاً، بدأ بفترة من الركود إثر سقوط الدولة الأخيضرية، ثم انتقل إلى مرحلة النهضة، وأخيراً إلى مرحلة الإمارات. وعلى الرغم من أن هذه المرحلة الأخيرة مثلت تطوراً ملحوظاً، فإنها تظل مرحلة انتقالية تتطلب استمرارية في التحديث والتطوير. فالتوقف عند هذا الحد قد يؤدي إلى التراجع؛ إذ إن المجتمعات التي لا تخضع لحركة دائمة من التطور والتجديد تصبح عرضة للانحسار. فالثبات عند مستوى معين قد يفضي إلى التراجع؛ لأن مسار التاريخ يسير بطبيعته نحو التقدم. ويُشكّل الاتحاد بين الكيانات المتعددة عاملاً رئيسياً في تحقيق التقدم، إذ أسهم في تعزيز القوة الإقليمية لنجد وتوحيد الجهود لتحقيق الأهداف المشتركة؛ ومن ثم، أسهم في ترسيخ استقرار المنطقة ودفعها نحو مسار التطور المستدام.

وعليه، أُسست الدولة السعودية عبر عملية تراكمية استغرقت قروناً، شكلتها تطورات تاريخية متلاحقة، -لم تكن مستعمرة ولم تكن ولاية عثمانية- وتشترك الدولة السعودية مع العديد من الدول الكبرى؛ مثل الدول الصفوية والعثمانية، في نموذج تاريخي يبدأ بالكيانات المتعددة وينتهي بقيام دولة موحدة. هذا النموذج يؤكد أن تأسيس الدولة القوية يتطلب فترة تحضيرية طويلة، وأن مرحلة الإمارات ليست مرحلة تدهور بل هي مرحلة بناء؛ وبهذا تختلف الدولة السعودية عن كثير من الدول التي نشأت في لحظة مفاجئة من الزمن؛ مثل الدول التي ورثت إدارة استعمارية.

وتظهر الدراسة أن تأسيس الدولة السعودية كان نتاجاً طبيعياً لتطور تاريخي متصل، وأن مرحلة الإمارات كانت حلقة أساسية في هذا التطور. فالدول الكبرى لا تنشأ من فراغ، بل تحتاج إلى أساس قوي من النمو والتطور.

وتتجلى أهمية هذه الدراسة ويتحقق مغزاها في إعادة النظر في السياق التاريخي لنشأة الدولة السعودية وتصحيح المفاهيم السائدة حول ظروف تأسيسها. فالقول بأن الدولة انبثقت من مرحلة متدهورة يتعارض مع المسار الفعلي لتطورها؛ إذ لم تكن ولادتها في فراغ سياسي أو تراجع حضاري، بل قامت على أسس راسخة من

النمو العمراني والازدهار الاقتصادي والإداري، الذي شهدته مدن نجد قبل التأسيس. وقد استطاع الإمام محمد بن سعود، أن يستثمر في المعطيات القائمة ويوحد الكيانات المتعددة في كيان سياسي متماسك.

إن وصف الحقبة السابقة لتأسيس الدولة السعودية بأنها فترة تراجع يشكل عائقاً أمام الفهم الدقيق لمسارها التاريخي، كما أنه يغفل العوامل الأساسية التي مهدت لنشأة الدولة السعودية؛ فالدول لا تنشأ في فراغ أو على أرض خالية من المقومات السكانية والعمرانية، بل تنبثق من سياقات تاريخية واجتماعية واقتصادية متقدمة.

ولهذا لم تظهر دول مركزية في القرنين السابع أو التاسع للهجرة؛ إذ كانت تلك المرحلة بمثابة فترة تحضير ونمو، كما مر معنا، تبلورت خلالها ملامح التطور العمراني والاجتماعي والاقتصادي، لكنها لم تصل إلى مرحلة النضج الكافي لقيام كيان سياسي مركزي. ولم يكتمل هذا البناء إلا بعد قرون من التراكم الحضاري؛ مما مهّد لظهور الدولة السعودية على أسس راسخة ومتينة.

أما فيما يخص دور عصر الإمارات في تأسيس الدولة، فإن السردية التقليدية تقلل من أهميته، مختزلة عملية التأسيس في الدعوة والإمام فقط، في حين أن الرؤية البديلة تؤكد إسهام عصر الإمارات في بناء المجتمع وتطوير البنية العمرانية والاقتصادية؛ مما مهد لقيام الدولة السعودية.

ويمكن اتخاذ موقف وسطي بين الاتجاهين، مفاده أن التطورات التي شهدتها تلك الفترة أسهمت بالفعل في التأسيس، لكنها كانت في حاجة إلى فكرة توحيدية وقائد قوي يتخذ القرار ويقود المجتمع نحو التحول إلى مرحلة الدولة الموحدة. وبعبارة موجزة: جاء التأسيس نتيجة لتفاعل ديناميكي بين التحولات المجتمعية ودور القيادة؛ مما أرسى الأساس لقيام الدولة السعودية.

الخلاصة

بعد استعراض موضوع الدراسة وتحليل أبعاده المتعددة، تُقدَّم هذه الخاتمة لتلخّص أبرز ما توصلت إليه الدراسة. وقد قُسِّمت إلى قسمين: يستعرض الأول أهم

النتائج التي كشفتها الدراسة، في حين يقدّم الثاني توصيات أكاديمية وعملية تسهم في تعميق الدراسة وفتح آفاق جديدة للبحث المستقبلي.

النتائج

بناءً على التحليل النقدي للاتجاهات المختلفة توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج الجوهرية، من أبرزها:

- توضح هذه الدراسة الأخطاء الشائعة في تقييم مرحلة الإمارات النجدية بوصفها مرحلة تدهور، وهي تمثل مرحلة مفصلية في التاريخ الوطني بمفهومه الشامل، وتدعو إلى ضرورة إعادة قراءة هذه المرحلة بشكل موضوعي، بعيداً عن التحيزات والأحكام المسبقة.
- إن السردية المؤسسة ركزت -بدرجة كبيرة- على الصراع والتنافس خلال عصر الإمارات، بدلاً من التركيز على الجوانب الحضارية؛ مثل: التعاون الاجتماعي والتبادل الثقافي والبناء العمراني.
- إن التقليل من شأن هذه المرحلة، ومقارنتها بشكل مباشر بالعصر الجاهلي أو بإمارات الطوائف الأندلسية، يعتبر أمراً غير دقيق؛ إذ إن كل مرحلة لها ظروفها الخاصة وتحدياتها وملابساتها.
- لقد أظهر التحليل التاريخي أن هذه المرحلة على الرغم من كونها سابقة لقيام الدولة المركزية، فإنها كانت مرحلة حيوية شهدت تطورات اجتماعية وسياسية واقتصادية أسست لبناء الدولة السعودية.
- كان تطور البنية التحتية عاملاً مهماً في قيام الدولة المركزية في نجد، إلا أنه لم يكن كافياً بحد ذاته، بل كان يحتاج إلى وجود قيادة قوية وحكيمة تستطيع الاستفادة من هذه التطورات وتوحيد المجتمع خلال القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد.
- إن التأسيس لم يكن وليد اللحظة، بل كان نتاجاً لتفاعل متكامل بين التطورات الاجتماعية والحضارية المتراكمة والإرادة السياسية.

- إن إعادة قراءة تاريخ الإمارات النجدية بمنظور نقدي وبناء يفتح آفاقاً جديدة لفهم تطور الحركة الوطنية في نجد، ويؤكد أهمية الاستمرارية التاريخية في بناء الدولة السعودية.

التوصيات

بناءً على ما توصلت إليه الدراسة من نتائج، تبرز الحاجة إلى تقديم مجموعة من التوصيات التي تسهم في إعادة قراءة عصر الإمارات النجدية بموضوعية، وتعزز الفهم الأكاديمي لهذه المرحلة التاريخية. وتنقسم التوصيات إلى محورين أساسيين، يشمل كل منهما جوانب محددة تسهم في تحقيق الأهداف المرجوة: توصيات أكاديمية تهدف إلى تطوير الدراسات التاريخية المتعلقة بهذه الحقبة، وتوصيات عملية تسعى إلى توظيف الدراسة في مشاريع مؤسسية تسهم في توثيق وتحليل التطورات السياسية والاجتماعية التي شهدتها نجد خلال تلك الفترة.

أولاً: التوصيات الأكاديمية

1 - إعادة قراءة تاريخ عصر الإمارات النجدية بموضوعية:

- إعادة النظر في المفاهيم السائدة حول هذه المرحلة التاريخية، وتحليلها بعيداً عن التفسيرات الأحادية التي تصفها بالتراجع فقط.
- تقديم دراسات أكاديمية متخصصة تركز على تطورات هذه الحقبة وتأثيراتها في بناء الدولة السعودية.

2 - تعزيز الهوية الوطنية في الدراسات التاريخية:

- إبراز دور هذه المرحلة في تطور المجتمع النجدي، وربطها بمرتكزات رؤية المملكة 2030، خاصة في محور "مجتمع حيوي" يؤكد الاعتزاز بالإرث الثقافي والتاريخي.
- التأكيد على أن كل حدث أو تطور وقع في أرض المملكة يُعد جزءاً لا يتجزأ من تاريخها؛ مما يستدعي إعادة تقييم هذه الفترة في المناهج الأكاديمية والبرامج البحثية.

3 - إجراء دراسات مقارنة:

- التوسع في دراسة آراء الباحثين العرب والغربيين حول مرحلة ما قبل التأسيس؛ مما يعزز المقارنة بين السياقات المختلفة ويفتح المجال لتحليل أوسع لهذه الحقبة التاريخية.
- تحليل كيفية تأثير السياقات السياسية والثقافية على تفسير هذه المرحلة من قِبَل المؤرخين من مختلف المدارس الفكرية.

ثانياً: التوصيات العملية

تحويل الدراسة إلى مشروع بحثي متكامل يتطلب جهوداً مؤسسية ودعماً مناسباً من الجهات الأكاديمية والمؤسسات البحثية عن طريق وضع خطط ممنهجة للكشف عن التطورات الحضارية في عصر الإمارات النجدية وفق خطوات محددة.

1 - تحديد المصادر والمراجع اللازمة للبحث:

- المخطوطات: البحث في المخطوطات التاريخية والأدبية والجغرافية التي تتناول نجداً خلال هذه الفترة.
- كتب البلدان: تحديد الكتب التي تناولت نجداً وتحليل الجوانب التي ركزت عليها.
- المصادر الشفوية: جمع الروايات الشفوية من كبار السن وتوثيقها بطريقة علمية دقيقة.
- المصادر الأثرية: دراسة الآثار المادية المتبقية من تلك الفترة؛ مثل المباني، والنقوش، والأدوات المستخدمة.

2 - بناء فريق بحثي متخصص:

- المؤرخون: المتخصصون في تاريخ الجزيرة العربية وتاريخ نجد بشكل خاص.
- محققو المخطوطات: الخبراء في تحليل وتحرير النصوص القديمة.
- الباحثون في الأدب الشعبي: دراسة الأدب النجدي وتحليل دلالاته التاريخية والاجتماعية.

- الجغرافيون: دراسة العوامل الجغرافية التي أثرت على تكوين الإمارات النجدية.
- اللغويون: تحليل اللغة واللهجات المستخدمة خلال هذه الفترة التاريخية.
- التقنيون: تطوير قواعد بيانات تاريخية وتصميم خرائط رقمية للإمارات النجدية.

وفي الختام، أسأل الله -عز وجل- التوفيق والسداد، وأن يجعل هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم. وإن كنت قد وقعت في خطأ أو زلّة، فهو من طبيعة البشر، وألتمس العذر على ما قد يشوبه من نقص أو تقصير. وأسأل الله أن يمنّ عليّ بالإخلاص في القول والعمل، وألا يحرمني أجر هذا السعي. وآخر دعائي أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

ابن بشر، عثمان بن عبدالله. (1982). *عنوان المجد في تاريخ نجد* (عبدالرحمن آل الشيخ، تحقيق) (ط.4). دارة الملك عبدالعزيز.

ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي. (د.ت). *تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*. دار الشرق العربي.

ابن خلدون، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد. (1988). *العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر* (خليل شحادة، تحقيق) (ط.2) دار الفكر.

ابن خميس، عبدالله. (1978). *المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: معجم اليمامة*. منشورات دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة.

ابن عبيد، إبراهيم بن عبيد بن عبدالمحسن. (2007). *تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان*. مكتبة الرشد.

ابن عساكر، راشد بن محمد. (2005). *قوافل الحج المارة بالعارض من خلال وثيقة عثمانية*. درة التاج للنشر.

ابن عيسى، إبراهيم بن صالح. (1999). *تاريخه، خزانة التواريخ النجدية* (ج2).

ابن غنام، حسين أبو بكر. (2010). *تاريخ ابن غنام المسمى بـ: روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام*. دار الثلوثية.

ابن لعبون، حمد بن محمد. (1999). *تاريخه، خزانة التواريخ النجدية* (ج1).

ابن المجاور، أبو الفتح يوسف بن يعقوب. (1996). *تاريخ المستبصر* (ممدوح محمد، تحقيق). مكتبة الثقافة الدينية.

الإدريسي، محمد. (1989). *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*. عالم الكتب.

البسام، عبدالرحمن. (د.ن). *تاريخه، خزانة التواريخ النجدية* (ج5).

البسام، عبدالله. (1999). *علماء نجد خلال ثمانية قرون*. دار العاصمة.

التركي، محمد. (1998). *الإمام سعود بن عبد العزيز وجهوده في الدعوة إلى الله*. دار الأندلس الخضراء.

الجهني، عويضة. (2016). *نجد قبل الوهابية (الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية إبان القرون الثلاثة التي سبقت الحركة الوهابية)* (إحسان زكي، ترجمة). جسور للترجمة والنشر.

الحموي، ياقوت. (1995). *معجم البلدان*. دار صادر.

خسرو، ناصر المروزي. (1983). *سفر نامة* (تحقيق يحيى الخشاب). دار الكتاب الجديد.

الدامغ، فهد. (1999). *كتاب منطقة الرياض: دراسة تاريخية وجغرافية واجتماعية*. الفصل الخامس: تاريخ منطقة الرياض منذ منتصف القرن الثالث الهجري حتى قيام إمارة الدرعية سنة 850هـ إمارة منطقة الرياض.

الدامغ، فهد. (2006). التاريخ السياسي لبلاد اليمامة منذ سقوط دولة الأخيضريين حتى قيام إمارة الدرعية. *مجلة الدرعية، 8*(32).

الدامغ، فهد. (2011). تأسيس أو إعادة إعمار بعض البلدان النجدية. *مجلة دارة الملك عبدالعزيز، 37*(2).

الدخيل، خالد. (2012). *الوهابية بين الشرك وتصدع القبيلة*. الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

الدخيل، سليمان. (1966). *القول السديد في إمارة آل رشيد*. دار اليمامة.

الذكير، مقبل. (1999). *مطالع السعود في تاريخ نجد وآل سعود، خزانة التواريخ النجدية* (ج7).

الرسي، أحمد. (2024). نجد *خلال العصر العباسي* [رسالة دكتوراه غير منشورة]. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

الشقير، عبدالرحمن. (2002). المذهب الحنبلي في نجد. *مجلة دارة الملك عبدالعزيز*، *28*(1).

العبودي، محمد. (1979). *المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، بلاد القصيم*. منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.

العثيمين، عبدالله. (1999). *تاريخ المملكة العربية السعودية*. الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية.

العريني، عبدالرحمن. (1999). *الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى*. الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية.

الفاخري، محمد. (1999). *تاريخ الفاخري*. الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية.

المنيف، عبدالله. (2010) الحياة العلمية في الدرعية في عهد الدولة السعودية الأولى. *مجلة الدرعية*، *13*(50).

د. أحمد بن عبدالله الرسي، أستاذ مساعد، قسم التاريخ والحضارة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، حاصل على شهادة الدكتوراه في تاريخ الجزيرة العربية وحضارتها في العصور الوسطى من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في المملكة العربية السعودية، 2024. الاهتمامات البحثية: تاريخ الجزيرة العربية عبر العصور، فلسفة التاريخ، المدارس التاريخية.

AAALRASI@imamu.edu.sa

للاستشهاد:

الرسي، أحمد بن عبدالله. (2025). عصر الإمارات النجدية (850-1139هـ/ 1446-1727): دراسة نقدية تحليلية من منظور التطور التاريخي. *مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية*، *51*(197)، 257-288.
https://doi.org/10.34120/jgaps.v51i197.3377

To cite:

Alrasi, A. A. (2025). The era of Najd Principalities (850-1139 AH / 1446-1727): A critical and analytical study from the perspective of historical development. *Journal of the Gulf and Arabian Peninsula Studies*, *51*(197), 257-288. https://doi.org/10.34120/jgaps.v51i197.3377